المُرَابي الذي دَخلَ الجَنّة

سعادة في شقاء:

لا أريد بالسعادة ما تناله من لذاذات العيش فُتاتا أو على أجزاء كلقاء صديق بعد فرقة، أو وصال حبيب بعد قطيعة، أو قضاء ساعة في ملهى، أو انبساط قلب في نزهة، أو انتشاء نفس من منادمة، أو استغراق حس في جمال، فإن تلك الحالات فلتات عرضية كالانطلاق والضحك والأنس، تنفك ولا تلزم، وتنقطع ولا تدوم، إنما أريد بالسعادة تلك الحال التي تغلب على المرء في أكثر عمره فيستلذ معها ألم التعب وذل الحرمان ومض اللوم وقبح السمعة وهي حال لا أستطيع تعيينها بحد ولا توضيحها بتعريف.

وقصارى ما أستطيعه أن أسوق إليك مثلاً من أمثالها الكثيرة المختلفة ستجد في ذاكرتك من غرائبها ما يؤكد لك أن السعادة لا تعرف الإطلاق، وإنما هي بالإضافة إلى كل إنسان ما ينبثق من الرضا في نفسه، ويصح من الهوى في اعتقاده.

عرفت وأنا في سن الحداثة رجلاً في أعقاب العمر كان يعيش في قرية مجاورة، كنت أراه وهو يمر بقريتنا على الطريق الزراعي العام ذاهبًا إلى البندر في الصباح أو آيبًا منه في المساء، فيلفتني إليه جثته الضخمة على بغلته السوداء، وعمامته المكورة على رأسه الحليق، وجبته الجرداء على جسمه البدين، ووجهه المُطَهَّم[1] على صدره العريض، وبطنه المنتفخ على بردعة بغلته المضلعة، فأملأ عيني من منظره العجيب، ثم أتبعه بصري إلى أن يغيب.

وكان في موعدَي غدوه ورواحه أدق ضبطًا من قطار الصبح في ذهابه إلى دمياط، ومن قطار المغرب في عودته إلى المنصورة، فكان أصحاب الحقول الواقعة على جانبي طريقه يوقتون بهما، فيقول أحدهم للآخر: سأعلق الساقية أو سأحل المحراث عند مرور الشيخ (علي).

---

(1) قلت: جْهٌ مُطَهَّمٌ : بَارِعُ الجَمَالِ ، مُمْتَلِئُ الخَدَّيْنِ. والمِطَهَّمُ : السمينُ الفاحشُ السِّمَنِ. والمِطَهَّمُ : المُنْتَفِخُ الوجهِ. والمِطَهَّمُ : الكريمُ الحسَبِ.

وترددت بحكم الجوار القريب على قرية الشيخ علي فعلمت أن له في حياة الناس شأنًا لا يقل عن شأن القدر والحظ، كانت بغلته كبغلة العَشر التي توزع الذهب واللؤلؤ على الموعودين في ليلة عاشوراء كما تقول الأسطورة: كان خُرجها كحواصل الطير يغدو فارغًا إلى البنك ثم يروح ملآن إلى القرية، فيجد أصحاب الحاجات من رجال ونساء قد تكدسوا أما الباب وفوق المصطبة ينتظرون ساعة الفرج ومع كل منهم قطعة من نحاس في يده، أو حلية من ذهب في جيبه، فيدخل الشيخ الحجرة الخاصة ويتبعه كاتبه مبروك أفندي، فيجلس بجانب الخزانة المغبرة، ويقعد الكاتب أمام المنضدة العتيقة، ثم يدعو المنتظرين واحدًا بعد واحد، فمن كان رهنه ذهبًا وضعه في الخزانة، ومن كان رهنه نحاسًا ألقاه في المخزن، ومن كان رهنه عقارًا أخذ منه سند الملكية، ثم يختم الراهن ويوقع على بياض ثم ينصرف! حتى إذا خلت المصطبة والزقاق من المأزومين والمعوزين صلى المرابي العشاء وتبلغ بشيء من الخبز اليابس مفتوتًا في اللبن الحليب، ثم أخذ يباشر هو والكاتب تحقيق الأشخاص وتقويم الرهون وتقرير السلفة وتقدير الفوائد وتحرير الصكوك، حتى ينقضي الهزيع الثاني من الليل فينصرف الكاتب، ويعمد هو إلى الخزانة فيحكم القفل، وإلى المخزن فيوثق الرتاج، وإلى الدهليز فيغلق الباب. فإذا اطمأن قلبه على أولئك كله تسلل إلى حجرة نومه دون أن يتيح الفرصة لزوجته الصابرة فتطلب النفقة، أو لأولاده التسعة فيشكوا الضيق، فينام نوم المهموم القلق حتى يطلع الفجر فيصلي. ثم يجد الخادم قد وضعت بجانبه على العادة موقد الكحول وبكرج اللبن ورغيفين من الخبز الرقيق الجاف، فيشعل النار ويغلي الحليب ويفت الخبز ويفطر، ثم يتهيأ للانتقال إلى حجرة العمل فيختبر في طريقه إليها الأبواب ويفحص الأقفال ثم يفتح الخزانة باسم الله ويمد عينه ويده إلى كل موضع من مواضعها الظاهرة والباطنة، حتى إذا لم يجد ما يريبه أخرج النقود المطلوبة على حسب البيان الذي كتبه في الليل مبروك، وجاء المقترضون بعد بزوغ الشمس ليقبض كل منهم المبلغ الذي قدره له رهنه وشأنه. ثم تقف بغلة الشيخ في ميعادها المألوف على الباب فيركبها إلى المنصورة، ليقدم إلى محاميه مستندات قضية، أو ليحضر معه جلسة الحكم في نزع ملكية !.

* * * * *

لم يكن الشيخ علي يذوق اللحم إلا مدعوًا، ولا يشتري الثوب إلا مضطرًا، ولا يعرف معنى الأنس في أسرة ولا مجلس، ولا متعة الحديث في قهوة ولا دار، فيئست زوجته من عطفه فانصرفت إلى الدجاج والبط، وقنط أولاده من عونه فتصرفوا في الربا والتجارة، وحصر هو دنياه في البغلة والخادم، وفي الخزانة ومبروك، وفي المحكمة والمحامي، وفي البورصة والسمسار، فأصبح لا يجد سعادة نفسه ولا لذة عيشة إلا في مال يقبضه، أو حكم يكسبه، أو ملك ينزعه، أو عقار يشتريه.

أما الألم الذي يسببه الحرمان، والذل الذي يجلبه الطمع، والندم الذي يبعثه الضمير، فقد مات كله في شعوره، وغاب أثره عن باله، عند البنون ولا يجد فيهم عِزًا ولا زينة، وفي بيته الخير ولا يبلغ به رضا ولا سكينة، وفي يده المال ولا يأكل في الدار إلا الخبز في اللبن، ولا في القهوة إلا السميذ في الشاي، وكل عزه وغاية رضاه أن يرى المحتاجين يترامون على بابه باكين أو ضارعين يتوسلون إليه أن يعجل السُلفة أو يؤجل السداد أو يرفع الحجز، وهو يزورُّ عنهم ويتدلل عليهم رافعًا رأسه من التيه، لاويا شدقه من الكبر.

ومرت الأعوام على خطوات البغلة وصفقات المرابي فخربت دور لتعمر دوره، وغاضت موارد لتفيض موارده، وطفحت الخزانة بالذهب فترك البغلة وركب القطار، وأنكر المنصورة وعرف الإسكندرية، وأفرغ خزانة النقود، ليضارب في بورصة العقود، فلم يحل عليه الحول حتى خسر تسعين ألف جنيه عينًا. وحينئذ أحس بالشقاء وشعر بالفراغ، وأدرك أن كل شخص يزدريه، وأن كل شيء يعوزه. فلما رجع مبروك أفندي صفى معه الحساب فوجد أن ما خسره في المضاربة هو كل ما ربحه من الربا، فانبعث في صدره إيمان كان قد مات، وتيقظ في ضميره شعور كان قد رقد، ورأى أن هناك غير المال الذي عبده إلهاً آخر لا يضيع في البورصة ولا يغيب في المصيبة ولا يتخلى في الشدة. فرجع إلى الله وأصبح يصلي ووجهه إلى القبلة بعد أن كان يصلي ووجهه إلى الخزانة. ثم ضم زوجة إلى قلبه، وآوى بنيه إلى عطفه، وأطلق أيديهم فيما بقى من ثروته وهي الأرض الطيبة والتجارة الحلال، وتفرغ هو لاستقبال التوجيه السماوي للخير، فمسح بالصدقة دموع الربا، وفرج بالمعروف كروب المنكر، وتغير في ذهنه مدلول

السعادة فاعتقده في إيثار الغير لا في أثرة النفس، وفي بسمة الشاكر لا في دمعة المحتاج. وانحصرت في دنياه حدود الغبطة فلم تتعد الإيمان بالله والإحسان إلى الناس، فحج البيت وتطهر فيه، وبنى المسجد ووقف عليه. ثم تنفس به العمر حتى شارف المائة فانتقل إلى جوار ربه وحياته الحافلة بالكد والدأب والربح والخسارة والشر والخير مصداق لقول الرسول الكريم[1] " إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " تغمده الله بالغفران على ما أساء، ومَنَّ عليه بالرضوان على ما أحسن.

---

(1) قلت: هو حديث عبد الله بن مسعود: (قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ– قَالَ: " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَصَوَّرَهُ ، وَخَلَقَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ ، وَجِلْدَهُ وَشَعْرَهُ ، وَلَحْمَهُ وَعِظَامَهُ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ ، فَيَجْعَلُهُ اللهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، أَسَوِيٌّ أَوْ غَيْرُ سَوِيٍّ؟ ، فَيَجْعَلُهُ اللهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سَوِيٍّ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، مَا رِزْقُهُ؟ ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ، مَا أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا خُلُقُهُ؟ ، أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ ، فَيَجْعَلُهُ اللهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ فَيَقْضِي اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَمْرَهُ، فَيَكْتُبُ مَا هُوَ لَاقٍ حَتَّى النَّكْبَةَ يُنْكَبُهَا ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ ، فلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهَا".

أخرجه البخارى (1174/3، رقم 3036) ، ومسلم (2036/4، رقم 2643) ، وأبو داود (228/4، رقم 4708) والترمذى (446/4، رقم 2137) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (29/1، رقم 76).